اتجاهات الفن المصري المعاصر

بقلم : بدر الدين ابو غازي

لا نكاد نتصدى للحديث عن فنون مصر المعاصرة حتى تلوح لنا اثار ماضيها قريبة منا رغم ابعاد الزمن كما تتداخل الاهرام ومآذن القلعة في رؤيانا رغم ابعاد المكان فما زال هذا الماضي الفني الشامخ يحيا بيننا بتقاليده ومعالمه وما زال يؤثر في اتجاهات الفن المعاصر. ولا بد لنا لكي ندرك موقف الفنان المصري من ان نراجع هذا التاريخ الذي يحوطه ويعيش في اعماقه ...

فلم يعرف التاريخ بلداً كمصر عاشت على ضفافه مثل هذه الحضارة الفنية المتتابعة الحلقات بتراثها المتعدد الالوان ولم تقم الفنون التشكيلية في الماضي بدور كهذا الذي قامت به في مصر القديمة ...

ولقد كانت هذه الفنون ابرز مقومات حضارة مصر ارتبطت منذ البدء بعقائدها الدينية التي شكلت اساليبها ومضمونها فتمثلت الصورة الغالية للفن القديم في شكل هذه المباني المتينة الشامخة تلتقي فيها آثار النحت والتصوير والزخرفة لتحقيق هذا الغرض الذي سيطر على الفنان المصري ... الانتصار على الموت ...

فالفنان القديم كان يحس بان الموت حدث لا يصح ان يؤثر او يبطل استمرار الحياة وخلودها، فوجه فنه لخدمة احساسه وعاش الفن المصري ونما في ظل هذه الفكرة التي استحوذت عليه، وشكلت صوره .

وبينما عرف الاغريق الفن للجمال والشكل فان مصر لم تعرف الفن الا كمعبر بين الموت والخلود ووسيلة لغرض كبير ساهمت كل صور الفن التشكيلي في خدمته .. حتى الزخارف في العمارة المصرية لها تعبيرها الخاص واتصالها المباشر بهذا الغرض، وحتى الكتابة فانها لا تنفصل في مصر كما كانت في الاغريق عن الفنون التشكيلية وانما تندمج معها وتسام الى جانبها في تحقيق الفكرة الشاملة التي وجه نحوها الفن .

ورغم ما يلوح لنا من وحدة الفن المصري وثبات صوره .. ورغم ولع المصريين في تعبيرهم الفني بالنظام والقاعدة الا ان واقع الامر ان الفن في مصر القديمة لم يثبت على نمط واحد ولقد لاحظت المدارس المختلفة خصائصها التعبيرية داخل هذا الاطار العام منذ الاسرات الاولى حتى العصر الصاوي .

ولئن كان النحت قد ظل « قلعة الفن المصري الحديث » كما قال ريكى الا ان التصوير ايضاً كان تراثاً عريقاً ابدعته مصر واخرجت روائعه قبل ان يعرفه الاغريق بستة آلاف عام كما قال بلين القديم .

وظلت هذه الفنون جميعاً محتفظة بطابع شخصيتها حتى غزا البطالمة والرومان مصر فعرفت مصر وجها اخر من الفن يستمد مصادره من المنبع الاغريقي .. وهجعت بعد ذلك وفي اعماقها ماض عظيم حتى عادت لتولد من جديد على يد الفنان القبطي باسلوبه وطابعه الخاص. ثم يأتي الفن الاسلامي ليضيف الى حضارة مصر الفنية تراثاً آخر من العمارة والزخرفة والنحت التجريدي المستتر وراء الكتابات الزخرفية .

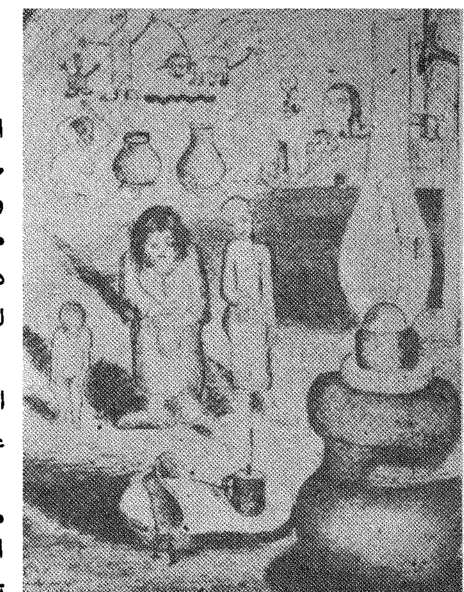
وعاشت مصر بعد عصرها الاسلامي حقبة من الصمت .. ولكن هل صمتت مصر حقاً وهل تلاشى تعبيرها الفني ؟ لقد صمت الفن المصري بتقاليده التاريخية الخاصة ولكن قوى الابداع في روح الشعب لم تكف عن التعبير. كانت كذلك في مصر القديمة فظهر الفن الشعبي الى جانب الفن الرسمي واتاح للتعبير الفني الحرية والانطلاق، وظل للشعب فنه وتعبيره فيما تلا ذلك من العصور ... وعندما صمت التاريخ الفني بمراحله الرسمية بقي الفن الشعبي طليقاً يسجل احاسيس الناس في اواني الفخار وعلى واجهات البيوت وفي عرائس المولد ويمارس في حياة المجتمع وظيفة مباشرة بغض النظر عن قيمته الفنية .

وفيما عدا الفنون الشعبية فان مصر لم تجد العون على امتداد تقاليدها القديمة او ابتداع تقاليد جديدة حتى بدأ الفنانون المستشرقون دورهم منذ عصر محمد علي وجاءوا يعالجون صور مصر باسلوب يحمل مخلفات الاكاديزم وخيال يحلق في ضباب البخور والطنافس والمشربيات، وبهذا الاسلوب بدأت تظهر صور مناظر النيل والاهرام والقلعة وقبور الخلفاء وآثار مصر القديمة .

وعلى يد هؤلاء المستشرقين بدأت تعاليم فن التصوير تنتقل الى المصريين حين بدأ عصر النهضة واخذت حاجتهم الى التعبير الفني تتمثل مرة اخرى ... وكذلك كان الامر بالنسبة لفن النحت فهو منذ توارى في العصر الاسلامي لم تذكره مصر الا حين بدأت حركة الكشوف الاثرية واخذت رمال مصر تبعث كل يوم اثراً من آثارها ليستقر في متحف بولاق او يتسرب الى اوروبا حيث تتلقاه متاحف اللوفر وبرلين ولندن وتورين وغيرها . ولكن حركة البعث الاثري لم تؤثر في بعث فن النحت الى ان بدأت مصر دروسها الاولى في هذا الفن على اساس التعاليم الاكاديمية ... وكانت مدرسة الفنون الجميلة التي اسسها الامير يوسف كمال سنة ١٩٠٨ هي مستقر الدراسة الفنية كما كانت الجامعة المصرية القديمة التي انشئت في نفس الوقت مستقر الدراسة الادبية والفلسفية .


امرأة من اسوان — لحامد عبدالله




مصباح الظلمات — لحامد ندا

وكانت رسالة الجيل الاول شاقة فالارض امامه صلبة .. وعليه بسبب انقطاع وصل التجارب الفنية بين مصر وماضيها ان يتابع دراسات اساتذته وكانها تحمل له تجارب دخيلة على مصر وتحمل معها تقاليد اوروبا الفنية بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

ومضت الحركة الفنية متأثرة في البدء بالتيار الاوروبي ملتزمة اساليب تعبيره . وحين كان الادب المصري الحديث قد ارسى دعائمه الاولى على يدي المويلحي والمرصفي ومحمد تيمور وحافظ وشوقي واسماعيل صبري ومطران كان الفن لا يزال في تجاربه المدرسية الاولى ..

وقامت ثورة سنة ١٩١٩ وكانت عميقة الاثر في وعي المصريين بمقومات مصريتهم وبدأت في اعقابها حركة بعث مصري .. وفي هذه الاثناء كان الجيل الاول من الفنانين ما زال يستكمل تجربته الفنية في مصر واوروبا واذا البوادر الاولى لمصرية التعبير في الفن تتجلى على يدي محمود مختار حين اعد وهو في باريس مشروع تمثال نهضة مصر فحقق بتمثاله الانسجام الباهر بين الحياة القومية والاثر الفني واختصر فيه النهضة ... بعث القديم وتمثل التيارات الجديدة الوافدة من الغرب ..

وحول هذا المعنى دار فن مختار فمثل مصر في عالم النحت . وبعد أن كان الفن في مصر القديمة ضرورة دينية تحول على يديه الى ضرورة قومية ارتبطت بحياة المجتمع . وفي اعمال مختار اروع استمرار لتراث مصر الفني في النحت .

اما جيل المصورين فلم يستطيع أن يربط بين انتاجه وبين التراث القديم ... كانت النظرة الغربية للفن قد استغرقته يؤكدها وسائط تعبيره التي ربطته بمدارس الغرب : فاللوحة الزيتية ليست تراثاً مصرياً وكذلك الالوان المائية والوان الباستيل ومن هنا ظل المصور المصري مرتبطاً بالغرب في حين كانت الحركة الفنية في اوربا تسعى الى الشرق وتحاول الالتقاء به كما يتضح من اعمال جوجان وماتيس وبيكاسو وبول كلي . ولكن الفنانين المصريين كانوا بمنأى عن هذه التيارات ... كان ثمة حجاب ثقيل يفصلهم عن ماضيهم وحجاب آخر يفصلهم عن الحاضر القريب من شواطئهم ... كانوا لا يرون ما بعد الفن الاكاديمي حتى التأثرية التي كانت قد ختمت معاركها حينئذ لم يبلغهم تيارها .

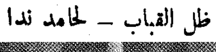
وعلى هذا النحو خرج محمد حسن بفن اكاديمي يحمل براعة الاداء والتمكن من التعاليم المدرسية في اللون والخط والتكوين وتمثلت المصرية عنده في اختيار الموضوع ... اجواء ووجوه مصرية عولجت باساليب ايطالية .

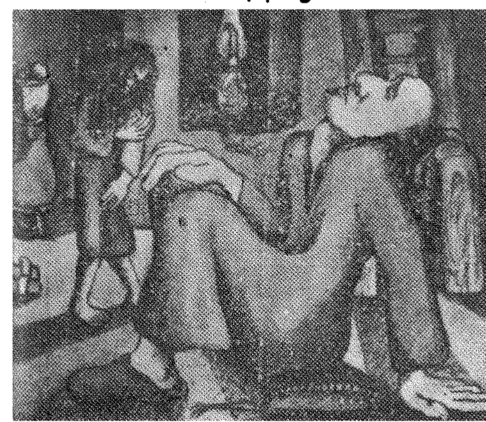
وظل احمد صبري في دائرة هذه الدراسات ولكنه مزج بين التقاليد الفرنسية والايطالية وتجلت مصريته في اختيار الالوان وفي سمات النبل والهدوء والاستقرار التي تميزت بها اعماله . وله في فن صور الاشخاص اثار بارعة .

ومضى يوسف كامل خطوة اخرى حيث اتخذ الريف المصري موضوعاً لفنه واتخذ النظرة التأثرية اسلوباً لتعبيره بينما كان راغب عياد اكثر خريجي المدرسة القديمة جرأة في التحرر من التعاليم المدرسية حطمها كما حطم المازني ادب المقامات ونزل باسلوبه المتحرر الى ميادين الحياة الشعبية .. المقاهي والاسواق والافراح والموالد والزار ..

والى جانب هذا الجيل الفني الاول الذي اخرجته مدرسة الفنون الجميلة كان هناك رجلان تشابهت ظروفهما من حيث المولد والنشأة وطريقة دراسة الفن ... كلاهما ولد في الاسكندرية وكلاهما درس القانون ومارس وظائفه ، لكن هواية الفن استحوذت عليهما فاتجها الى دراسته وعادا ليقدم محمود سعيد صورة اخرى لمصر ... مصر كما تجلت له خلال احاسيسه وعبر نفسه في اسلوب متين الاداء قوي التكوين جمع بين صياغة كبار اساتذة الفن وبين الصياغة المصرية القديمة ... والى جانبه قدم ناجي صورة اخرى عن طريق ادماج من التصوير الاوروبي مع المقومات المصرية التي اهتدى اليها من نظره الى الجو المصري والآثار القديمة .

والى جانب هذا الجيل المصري الاصيل فنانان من أصل غير مصري وان عاشا في مصر وانتسبا اليها وتأثرا بها هما جورج صباغ وآمي نمر ... اما « جورج صباغ » فقد استهوته مناظر اسوان وأنوار مصر وصور البحر وسجل من هذا كله صوراً جمعت بين قوة الرسم وتناسق الالوان ببراعة ومقدرة الاساتذة .... اما آمي نمر فقد استلهمت بلاد النوبة واتجهت الى الطبيعة الصامتة


ظل القباب — لحامد ندا



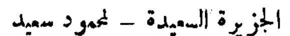
فصورت الفاكهة والعظام بطريقة يشعّ منها احساس عميق فيه قوة ونبل .

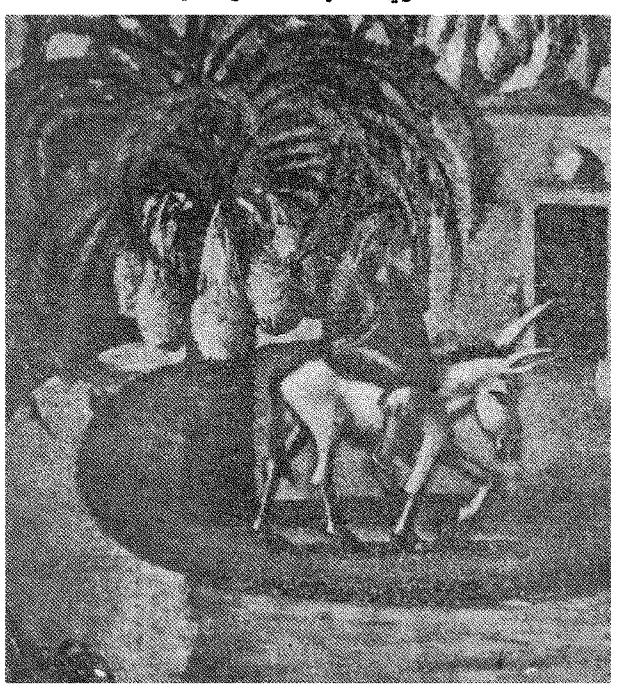
واذا تطلعنا على البعد الى هذا الجيل الاول الذي ساهم في اقامة صورة مصر نرى ثمة اختلافات بينهم في اسلوب الاداء وفي مضمون فنهم . فبينما صعد ناجي الى « الجبل » انحدر يوسف كامل الى « السهل » يصوره ويستلهمه ، وتطلع صباغ الى « البحر » ، في حين عاش محمود سعيد يصور « المرأة» بنت البلد تلك التي رآها تخطر في احياء الاسكندرية ، واتجه راغب عياد الى « الحيوان » الى الجاموس والبقر والجمال والخيل وأخرج منهـا صوراً رائعة ، في حين تميز احمد صبري بصور «الاشخاص » ، وتميزت آمي نمر بالطبيعة الصامتة ، واتجه مختار الى « الفلاحة » فرسم عن طريقها صورة كاملة للبيئة .

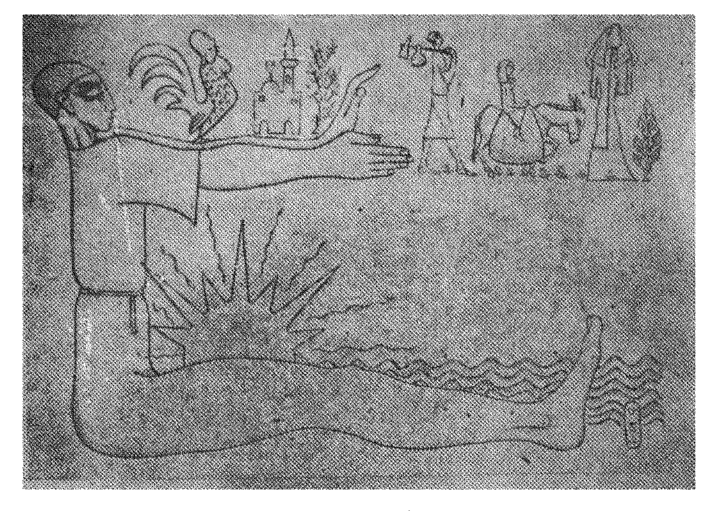
وبينما كان هذا الجيل الاول ماضياً في جهاده كان جيل ثانٍ يستقبل مرحلة التكوين ويتطلع الى اعمال سابقيه .

اما مثالو هذا الجيل فقد تأثروا بطريقة او بأخرى بالتقاليد الفنية التي اقامها مختار ورسم بها مصير فن النحت وان اختلفت شخصياتهم وطرائقهم فبينما ترى عند احمد عثمان اثر التقاء الدراسات الاجنبية مع الروح المصري وتلمح في اعماله صورة اخرى لمصر نرى منصور فرح وقد تأثر على نحو ما ببعض اعمال النحاتين الانكليز غير انهما يلتقيان بعد هذا في الكثير فكلاهما يجنح الى الزخرفة في فنه وكلاهما تأثر باقامته في اسوان وكلاهما يقيم للتكوين والاداء الفني اعتباراً هاماً واعمالهما المشتركة في محطة سراي القبة وحدائق الحيوان الى جانب اثارهما الفردية تضعهما في طليعة الجيل الفني الثاني .

اما ابراهيم جابر فقد تتلمذ في شبابه على لاندوفسكي ثم عاد الى مصر


الجزيرة السعيدة — لمحمود سعيد




الفجر — لجمال الدين السجيني

واتصل عمله بالمتحف المصري فاستهواه اسلوب مصر القديمة وراح يحذو حذوه متأثراً برسالة مختار مستمداً من وصيته الفنية لنفسه ... ولم يستمتع لمثان دسوقي ان يعيش طويلاً بعد ان وضع في الطريق معالم فنه الاولى .

وكان عبد القادر رزق اكثر النحاتين قربا من مختار ... وتماثيله « مع الماضي » و « الفلاحة » هي ذكرى صامتة لحياته في ظل فنـه . كما ان براعته في تماثيل الاشخاص تدل على فنان قدير متمكن .

الى جانب هؤلاء يقف مصطفى نجيب الذي عاش متأثراً بدراساته الفرنسية فاخرج في شبابه فنا لا يندرج تحت طراز معين ثم صمت ازميله لحظة وعاد مرة اخرى لاعداد تمثال الجندي المجهول . ففاز بجائزة مختار للنحت ثم انتقل الى مشروعات تماثيل الميدان العام .

وتردد مصطفي متولي بين نهج مختار ونهج اساتذته في ايطاليا واخرج اعمالاً ناجحة في شبابه .

اما جيل المصورين الثاني فيزيد عن جيل النحاتين عدداً ولكنه جيل جماعة حذقوا اصول الصياغة الفنية وتأثروا بدراسات محمد حسن الاكاديمية وبتعاليم احمد صبري وبفن يوسف كامل اكثر مما تأثروا بشخصية سعيد وناجي وعياد . وهم قدموا لمصر صورة تستند الى اصول الدراسات الفنية وان لم يمضوا في طريق التحرر والفردية .

ومن ابرز رجال هذا الجيل احمد احمد يوسف وعزت مصطفى وصدقي الجباخنجي وصالح الشيتي وعلي الديب



المظاهرة – لتحية حليم

والحسين فوزي والمرحوم لبيب تادرس والمرحوم عبد الغني قدري وصلاح طاهر . غير ان بعض افراد هذا الجيل نضوا عن انفسهم التقيد بالدراسة الاكاديمية واخذوا ينشدون طريق التحرر. وبينما وفق البعض فان بعضاً آخر قد اخطأه التوفيق، فاحمد لطفي عاد بعد فترة صمت فنسي ما درسه واخذ يحاول ان يرسم على نهج فان جوغ، وحسين بيكار بدأ تلميذاً صريحاً لاحمد صبري ولكنه مضى في طريقه الشخصي منذ سنوات. ووفق في اخرج اعمال ناجحة. وحسين يوسف امين استهوته الدراسات النفسية والنظريات التي اثرت في اتجاهات الفن المعاصر واعتنقها وتزعم جماعة جديدة في مصر هي جماعة الفن المعاصر، في حين بدأ عبد السلام الشريف متحرراً من القيود وانتهج في الفن نهجاً جديداً اذ لجأ الى التعبير عن احاسيسه عن طريق صناعة فنية اصيلة في مصر ... هي صناعة « الخيمية » وعن طريقها عالج صوراً مصرية في مضمونها مصرية في بساطة تكوينها وروعة خطوطها .

وابرز هذا الجيل فناناً آخر هو سعيد الصدر شخصية متعددة المواهب عالجت النحت والتصوير وبرزت في فن الخزف فجعلت لمنتجات هذا الفن مظهراً قومياً وحققت في هذا الميدان نتائج باهرة ... والى جانب هذا برز الصدر المصور فناناً متمكناً ، مفرد الشخصية وله اعمال فذة منها لوحة « السطح » التي ستظل اثراً هاماً بين آثار الفن المصري المعاصر .

وظهر حسين بدوي بطريقة جديدة في الصياغة الفنية اضفت على الموضوعات التي استوحاها من افراح الشعب واحزانه جواً شاعرياً .

وطلع نحميا سعيد في ختام هذا الجيل الثاني ولكنه ذوى وارتحل. ولو اتيح له الاجل لكان احد مفاخر المدرسة المصرية المعاصرة .

خلال هذا الجيل الثاني كان جيل آخر يتكون ويحاول اللحاق بسابقيه . وقد اتسم كثير من اعمال هذا الجيل بالخروج على التقاليد المرسومة وانطبع بطابع الثورة وتأثر بتيار الثقافة الحديثة التي سادت الفن الاوروبي فحور اتجاهه وغير نهجه منذ مطلع هذا القرن ... جدد بعض هؤلاء عن روية ووعي مثل حامد عبد الله الذي يعد من اهم دعائم هذا الجيل الثالث ... مصور قد استطاع بعد دراسة عميقة للطبيعة المصرية ونظرة باحثة في اصول الفن الفرعوني ان يجدد ويبتكر في الصياغة الفنية وان يخرج بفن يحمل طابع المتانة والاستقرار والدوام، تلك الاصول الخالدة لمصر القديمة ويحمل معها نظرات جديدة من بحثه الشخصي عبر النور والظل والتكوين .

والى جانب حامد عبد الله سيف وأدهم وانلي اللذين مضيا على نهج مذهب الفنانين الضواري وابرزا الحاناً جديدة من خلال الخطوط والالوان ومازال يرتجى منهما الكثير للفن المصري المعاصر .



هيله ... هيله ... – لانجي افلاطون

ومن نفس هذا الجيل مضى البعض مثل سعد الخادم وعز الدين حمودة ونظير خليل ومحمد صبري وسيد عبد الرسول وخالد درويش في محاولة تجديد القيم التصويرية ومنـــاهج البحث الفني .

غير ان هذا التجديد في الصياغة الفنية صحبه ثورة اخرى على المذاهب الفنية القائمة وعلى مضمون الفن نفسه . ثورة جاءت امتداداً لتلك النزعات الجديدة التي سادت اوروبا بعد الحرب وتقليداً لها ... تقليداً لتلك المحاولة القائمة على ان يأخذ الفن مكان الدين في الدراما الانسانية وصدى لهذا القلق الذي يسود حياتنا الحديثة ومحاولة لتسجيل هذا الصراع الذي يضطرب في عقولنا الباطنة .. عن هذا كله انبعث مذهب « السيرياليزم » في اوروبا ووجد له هنا دعاة ومقلدين . بين هؤلاء ظهرت اسماء كثيرة مثل التلمساني ورمسيس يونان وصبحي البكري وفؤاد كامل . وفي حين اكتفى البعض بالرموز الباطنة المجردة عمد آخرون الى الفنون الفطرية كالفن الزنجي يستمدون منه وسائل التعبير الباطني ... وامتدادا لهذه النزعة ظهرت محاولة اخرى لتصوير باطن الحياة الشعبية وتفسيرها وفق رموز ونظريات نفسية ... ومن اصحاب هذه المحاولات سمير رافع وعبد الهادي الجزار وابراهيم مسعودة وحامد ندا وما زالت اتجاهات هؤلاء تخضع للتحول والتغيير وتنصهر مواهبهم في بوتقة التيارات المعاصرة المضطربة .

اما النحت فلم يمض على هذا النهج ولم يتأثر كثيراً كما تأثر بعــض مصوري الجيل الثالث بهذه التيارات ... برز في هذا الجيل الثالث فتحي محمود الذي مضى في بدايته على نهج مختار والتقى في فنه اسلوب مختار بتقليد صياغـــة انطوان بوربيل وما لبث ان ارتفع من الاعمال الصغيرة الى تمثال الميدان . على ان من اكثر ابناء هذا الجيل الثالث استيعابا للاصول الفنية وتمكنا من طريقة الاداء هو محمود موسى .

وبرز في هذا الجيل الثالث جمال السجيني الذي بدأ كلاسيكياً ثم سافر الى باريس وعاد بعد سنوات احاط فيها بتيارات الفن الحديث . عاد يجاهد في البحث عن نفسه بين العوامل الفنية المختلفة التي مر بها وبين وسائل التعبير الفني التي درسها .. النحت والتصوير والحفر على النحاس . وما زال السجيني يمارس هذه الفنون الثلاثة غير ان اصالته الفنية تجلت في بعض اعمال الحفر على النحاس بصورة باهرة .

واخذت المرأة المصرية دورها ايضاً في قصة الفن المعاصر وقد تميزت اعمال طلائع الفنانات بالحرص على الدراسات الاكاديمية وبرقـــة في الاداء الفني . ظهرت في اعمال السيدة سميحة حسين والسيدة زينب عبدة وكوكب يوسف . ثم تفردت مرجريت نخله باسلوب فني خــاص تأثرت فيه ببعض الاساتذة الفرنسيين مثل مانيه ولكنها فنانة صادقة امينة لنفسهـــا اخرجت اعمالا فذة ولها لوحات بارزة بين اثار فن مصر المعاصرة . وجاءت تحية حليم تحقق بفنها توازناً فذاً بين الشاعرية والاحساس والنظرة وبين متانة الاداء الفني . وقد حققت بمعرضها الذي اقامته في لندن نجاحاً فذاً ومـــا زالت توالي دراستها الفنية مع زوجها الفنان حامد عبد الله .

وظهر جيل ثالث من الفنانات خرج عمـــا القي اليه من دروس وراح يبحث في الاساليب الفنية عن وسائل جديدة للتعبير .. ظهرت جاذبية سري متأثرة باسلوبها بفن جوجان وماتيس والنقوش المصرية القديمة وهي ماضية في الطريق وما زال يرجى منها الكثير، وبرزت اعمال زينب عبد الحميـــد ومفيده شعبان حاملة رغبة التحرر من الدراسات التقليدية .

خلال هذه الحقبة القصيرة التي لم تبلغ ،بعد، نصف قرن سطر الفن المصري المعاصر قصة باهرة استوعبت عديداً من الاتجاهات، وما زالت ماضية صوب المثل الفني الاعلى وهذا يحدو الى الامل في مستقبلها القريب ما دامت سائرة على هذا النهج فان الارض المصرية تطوي في اعماقها قيما فنية كثيرة مـــا زالت في حاجة الى ايدينا تنفض عنها تراب السنين وتعيـــدها الى النور من جديد .

وسنعود بعد هذه النظرة التخطيطية الشاملة لنقف عند اهم شخصيات الفن المصري المعاصر واوضح اتجاهاته لنردها الى اصولها ونتابعها في تطورها ونحدد مكانها في الحركة المعاصرة ...

بدر الدين ابو غازي